الفكر الإسلامي
بين العقل والنقل

د. ياسر شحاتة(*)

تظهر في كل حقبة زمنية منظومة فكرية توجدها الحالة الاجتماعية والظروف التي يمر بها المجتمع. وتظلل هذه المنظومة كافة أركان الثقافة بما في ذلك الدين. فيظهر في كل حقبة تصور للدين ربما لا يعبر عن الدين نفسه بقدر ما يعبر عن شكل العصر والحالة الاجتماعية. وقد ارتبط مفهوم الإسلام في الحقبة الزمنية الحالية بالحجاب والدولة الدينية (الإسلام دين ودولة). والسؤال هل هذا الفهم للدين يعبر عن الدين أم يعبر عن حالة المجتمع؟

يتفق الجميع (مسلمون طبعا) على أن الإسلام آخر الأديان. ولكن في تفسير هذه المقولة يقع تناقض هام يمثل منهجين في التفكير. فالتصور الشائع الذي يتوافق مع العقلية الشائعة (الحفظ والنقل والتكرار) هو أن الإسلام خلق مجتمعا متكاملا قابلا للنقل والتكرار في كل زمان ومكان حتى في أدق تفاصيله التي تصل من الشعائر الدينية إلى الزي. وأن أي تغيير في هذا المجتمع يعتبر بدعة (وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) وهو ما يعرف بالفكر المطلق الذي بدأت به المجتمعات البشرية منذ الفراعنة مرورا بكل الحضارات القديمة).

أما التفسير الآخر -والذي يغيب تماما في العالم الإسلامي الحالي في حين أنه كان موجودا فيما مضى- والذي ينبع من عقلية تحترم التطور وتؤمن بحتميته، فيرى أن الإسلام آخر الأديان لأنه أولا: ديانة ديناميكية أعطت شرعية للتطور والتغيير المستمر. وهو ما يعرف بالفكر النسبي. وثانيا لأنه أوصل البشرية إلى مرحلة الرشد القادرة فيها على التحليل والفهم واتخاذ القرار (وهو ما يعرف حاليا بالديمقراطية وحرية الرأي) بعد إن كانت فيما قبل الإسلام

(*) مؤسس أكاديمية ألتونا الدولية للفنون ـ هامبورج، وكيل اتحاد الباحثين العلميين بألمانيا سابقًا.

(الجاهلية) في مرحلة طفولة اجتماعية تحتاج فيها لمن يفكر لها ويحدد لها الصح والخطأ، وعليها الطاعة الكاملة ولا يصح لها التفكير، وهو ما يعرف في علم الاجتماع بالمجتمع الأبوي.

بدأ الإسلام بسنة التطور التي أرساها الرسول ﷺ. فكان شكل الإسلام الذي نادى به في مكة يختلف عن شكله في المدينة، ففي مكة نزلت على الرسول ٨٢ سورة كانت للدعوة إلى التوحيد وعبادة الله والإتيان بنماذج من قصص الأولين والابتعاد عن ظلم الجاهلية والدعوة للأخلاق الحميدة، وذلك دون التطرق للأحكام والحدود والتحريمات الأخرى، فرغم كثرة الآيات المكية إلا أنها خلت تقريبا من العقوبات والتكاليف. في المدينة نزلت عشرون سورة ورغم عددها البسيط إلا أنها مليئة بالحدود والعقوبات والفرائض والتكاليف (هناك ١٢ سورة مختلف عليها إن كانت مكية أم مدنية).

وعلى سبيل المثال لا الحصر مسألة الخمر الدي تدرج في التحريم. بل أن الآيات التي تعرضت للخمر كلها آيات مدنية.

الآية الأولى: صورة البقرة، ٢١٩: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾.

في هذه الآية إقرار بأن هناك نوافع للخمر ولكن أقل من ضررها ما يوحي بعدم وجود تحريم حقيقي ولكن مجرد نصح و إرشاد.

الآية الثانية: المائدة ٩٠، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

هنا يتصاعد التعرض للخمر فيوصف لأول مرة بأنه رجس من عمل الشيطان بعد أن كان ذا منافع تقل عن ضرره. ولكن يظل بدون تحريم حقيقي ولكن بدعوة لتجنبه.

الآية الثالثة: المائدة ٩١، ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾.

هنا يتصاعد التعرض درجة أعلى فيصبح أداة الشيطان في نشر العداوة بين الناس وأبعادهم عن ذكر الله. وهكذا نرى أن تحريم الخمر كان يتصاعد بناء على تغير الواقع.

وسلسلة التطور استمرت في عهد الرسول فمثلا أنه لم ينزل في القرآن حد الرجم للزنى، ولكن كانت هناك آيتان تحددان عقوبة الزنا إحداهما الحبس حتى يأذن الله:

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٥].

والعقوبة الثانية هي الجلد:

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]. ولكن الرسول عمل بالرجم (على غير ما جاء بالقرآن). وطبعا الرأي الذي يقول إن السنة تكمل القرآن رأي صائب، ولكنه لا ينطبق على هذه الحالة، فالسنة هنا لم تكمل شيئا ناقصا لم يرد ذكره، بل غيرت حدا مذكورا بنص صريح. وهذه القضية تسبب اليوم رعبا شديدا عند الكثيرين، في حين أنها كانت مسألة بديهية في ذلك الوقت. فحتى أبو بكر نفسه أضاف عقوبة جديدة وهي قتل الممتنع عن الزكاة، وقد اعترض عليه عمر لهذا السبب،[1] ولكن الخليفة العاقل رأى أن الوقت حساس ولابد من وأد الفتنة التي ظهرت بعد وفاة الرسول قبل أن تتفاقم، ولهذا تصرف بشكل حازم متوافقا مع الظرف حتى و إن كان مختلفا عن الحدود ولكنه يظل متفقا مع جوهر الدين والمصلحة التي تطورت فيما بعد وأصبحت الهدف الأساسي للتشريع. وهذه الرؤية استمرت في عهد عمر. فقد رفض إعطاء المؤلفة قلوبهم حصتهم من الزكاة والمذكورة بنص صريح في القرآن

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. [التوبة: ٦٠]. وكان رأي عمر أن الزمن تغير والمصلحة تقتضي عدم العمل بهذه الآية رغم أنها قطعية الدلالة، والتي ربما إن لم يوقف عمر العمل بها لوجدنا أنفسنا حتى اليوم ندفع لذريتهم نصيبا من الزكاة. وهنا نرى أن المصلحة العامة بدأت في هذا الزمن القريب جدا من زمن الرسول تتضح أهميتها وتفرض نفسها على التشريع. تطوير عمر في الأحكام استمر في حرية شديدة فقد أبطل أيضا العمل بسورة توزيع الأغنام على المجاهدين التي كانت تقضي بخمس لبيت المال وأربعة أخماس للمحارب: ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ [الأنفال: ٤١].

(١) علي طنطاوي، أبو بكر الصديق، دار المنارة، جدة، السعودية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص٦٦

وقرر إعطاء مرتب محدد للمحاربين[١]. وقد عانى في ذلك من ضغوط بلال والمحاربين الآخرين الذين كانوا دائمي الإصرار على الحصول على نصيبهم من الأرض المفتوحة كما فعل الرسول معهم من قبل وكما ينص عليه القرآن. كان رفض عمر إعطائهم أربعة أخماس الغنائم والاكتفاء بمرتب للجندي حكما جديدا مختلفا عن ما ذكر في القرآن (وهو نص صريح قطعي الدلالة) ومختلفا أيضا عما مورس في السنة، ولكنه طبعا متفق تماما مع روح الإسلام والمصلحة العامة كما رآها عمر وكما نوافقه عليها بالطبع.

وتعامل عمر الحر مع الحدود كان مذهلا.

قال ابو محمد حدثنا حمام بن ابن مفرج بن الإعرابي الدبري الرزان أن إمرأة جاءت إلى عمر بن الخطاب فقالت: يا أمير المؤمنين أقبلت أسوق غنما لي فلقاني رجل. فحفن لي حفنة من تمر. ثم ازادني ثم أزادني ثم أصابني. فقال عمر: «ما قلت؟» فأعادت فقال عمر: «أمهرك أمهرك». ثم تركها[٢].

وهكذا حول عمر حادثة زنا واضحة باعتراف المرأة إلى زواج. وترك الفقهاء يحتارون في تفسير وتبرير تصرفه. ولكن التفسير الوحيد المنطقي أن عمر كان يرى الحدود أمرا قابل للتطوير وليس إلزاميا. وفي الغالب أن عمر رأى أن إحساس المرأة بالذنب والذهاب الطوعي للخليفة للاعتراف يكفي للغفران والعفو.

وقضية إبطال العمل بحد قطع اليد للسارق معروفة للجميع ولكن ليست بتفاصيلها المثيرة ذات الدلالات.

فقد سرق خدم حاطب بن أبي بلغة ناقة رجل من مزينة. وحاطب بن أبي بلعة من أوائل المسلمين ومن أشهر فرسان قريش وشعرائها. وشهد مع الرسول ﷺ حروب بدر وأحد والخندق، ويحكى أنه كان من أمهر الرماة. والأهم من كل ذلك أنه الشخص الذي اختاره الرسول لحكمته وحسن دينه ليرسله بكتاب الإسلام إلى المقوقس عظيم الأقباط في مصر. واستطاع حاطب كسب احترام المقوقس الذي قال عنه أنت حكيم جاء من عند حكيم وأحسن ضيافته وأغدق عليه بالهدايا. فنحن نتحدث هنا عن رجل ثبت صلاحه وورعه وثقة

(١) أكرم الحوروني، احكام واجتهادات الفاروق عمر بن الخطاب، ٢٠٠٢، ص ٤٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٢.

الرسول فيه. فلما سرق خدمه ناقة المزيني ووصل الأمر إلى عمر أرسل لاستدعائهم فاعترفوا فأمر بداية بقطع أياديهم. ثم عاد واستدعاهم مرة أخرى مع الصحابي الحكيم حاطب. وقال أعلم أنكم تجوعوهم سأغرمنك وأعفو عنهم. فسأل حاطب المزيني عن ثمن الناقة فقال ٤٠٠ درهم فأعطى صاحبها ثمانمئة وأنقذ الغلمان[١].

أي أن تفسير البعض بأن ابن حاطب كان ظالما لا يعطي خدمه أجرهم هو تفسير جائر. فهو رجل يحكى عن ورعه الكثير. كما أنه ازاد صاحب الناقة الضعف رغم أنه كان يستطيع الاكتفاء برد ثمنها فقط. كلمة عمر بأنهم يجوعون خدمهم يمكن أن ترى بأنها الحجة التي استطاع بها إنقاذ الغلمان من المصير المشؤوم. كما أن هناك شيء هام لابد من ذكره، وهو أن الغلمان لم يسرقوا كسرة خبز ليشبعوا جوعا أنهكهم. بل قاموا بعملية سرقة كبرى. فالجمل أثمن ما يملكه الشخص خاصة في ذلك الزمن. فالمثل يقول حتى اليوم **«إن عشقت اعشق قمر، وإن سرقت اسرق جمل»** وهذا يعني أن يعشق الإنسان أجمل ما يمكن وإن سرق فيسرق أكبر ما يمكن. أي أن خدم الحاطب سرقوا -بموازين ذلك الزمن- أعظم ما يمكن وليس ربع دينار الحد الأدنى الذي ذكره الرسول لقطع اليد. كما أن عمر ذكر بكل وضوح: «لا يقطع في عذق، ولا عام السنة» أي أنه أعلن صراحة أنه يوقف العمل بالحد القرآني في ذلك العام كما يوقفه أيضا في سرقة العذق أي النخل. منع القطع في سرقة النخل إضافة من عمر. أي ببساطة العمل بالحدود نسبي. يتحرك بالإيجاب أو السلب حسب مقتضيات الواقع.

والتطوير الذي أرساه عمر وصل إلى حد تحريمه لزواج المتعة الذي أباحه الرسول ﷺ. (الرسول حرمه ثم أباحه) وعمل (بضم العين) به في عهد أبي بكر. وهذا تطوير واضح في السنة وحتى في النصوص القرآنية، عملا بسنة التطوير التي كان الرسول رائدا فيها. كانت الفترة الزمنية بين عمر والرسول ﷺ عامين فقط ورغم ذلك مورس فيها هذا القدر الهائل من التطوير، فما بالك بالفترة الزمنية التي تفصلنا عن الرسول والتي تصل إلى أكثر من ١٤٣٣ سنة؟. والحديث الشريف: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يرسل لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها»**[٢]. والحديث صريح وواضح فهو لم ينص على أن الله يرسل من يصلح، بل من يجدد، أي من يأتي بجديد لم يكن موجودا في الأصل. ولكن لابد

(١) رواه يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب وآخرون.
(٢) البخاري ومسلم.

من تأكيد حقيقة أخرى، وهي أن العبادات لم يحدث فيها أي تغيير لا في الشهادة ولا الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج. إذن هناك جانب لم ولا يصلح ولن يصح فيه التطوير وهو الفرائض والعبادات، وجانب آخر مورس فيه وأحل فيه التطوير وهو الأحكام والمعاملات.

وعند متابعة الأحاديث الشريفة نجد هذا الفصل البين بين هذين الجانبين الأساسيين للدعوة الإسلامية ونجد أن الفصل بينهما واضح وصريح وهما الجانب الديني (واجب الطاعة لأن منبعه وحي) أي (مطلق) الأحكام، وبين الجانب الدنيوي الذي أوكل إلينا تحمل مسئوليته أي (نسبي الأحكام) بعد أن أوصلنا الإسلام إلى مرحلة الرشد وتحمل المسئولية برخصة واضحة من الرسول ﷺ، ويكون الإسلام بذلك حقا آخر الأديان.

والحديث الشريف «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**[١]». الراوي: أنس بن مالك المحدث: مسلم - المصدر: مقدمة الصحيح - الصفحة أو الرقم: ٢٣٦٣ خلاصة الدرجة: صحيح.

وفي رواية أخرى

عن أنس بن مالك وهشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن النبي ﷺ: «**إن كان شيئا من أمر دنياكم فشأنكم به وإن كان من أمور دينكم فإلي**»

وفي رواية أخرى:

«**ما تقولون؟ إن كان أمر دنياكم فشأنكم، وإن كان أمر دينكم فإلي**»[٢].

أي أن الطاعة للرسول في أمور الدين فقط، لأنها أمور مطلقة أما الدنيا فقد أكد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أننا مسئولون عنها لأننا أعلم منه بها لأنها قضايا نسبية، وليس في هذا إنقاص من شأنه ﷺ بل هو أكبر تعظيم له، وأصبح بذلك عن حق خاتم الأنبياء والمرسلين. وهذه الرؤية تثبت عظمة الإسلام الحقيقية كأول ثقافة ترفع من شأن الإنسان إلى مستوى الرشد والتفكير واتخاذ القرار، فأصبح آخر الأديان. هذه المرحلة (مرحلة تطور المجتمع الإنساني من الطور الأبوي إلى طور الرشد واتخاذ القرار) وصل إليها المجتمع الأوروبي بعدنا بألف سنة،

---

(١) الراوي: أنس بن مالك المحدث: مسلم - المصدر: مقدمة الصحيح - الصفحة أو الرقم: ٢٣٦٣ خلاصة الدرجة: صحيح

(٢) أبو قتادة المحدث: الألباني - المصدر: السلسلة الصحيحة - الصفحة أو الرقم: ٢٢٢٥خلاصة الدرجة: إسناده صحيح على شرط مسلم.

ونسب هذا التطور إلى أوروبا. وربما كان هذا ما كان يقصده فضيلة الإمام محمد عبده عندما أعلن أنه وجد في أوروبا إسلاما ولكن بدون مسلمين وفي مصر مسلمين بدون إسلام. المدهش أن هذا الفصل بين الدين والدنيا كما ذكر الرسول ﷺ لم يكن معروفا فكريا في هذا الزمن، بل عرف بعد ذلك بألف سنة، فأصبح من أهم منجزات العصر الحديث الفكرية. وهو الفصل المعروف الآن بالدين والدولة.

يتأكد هذا الفهم للإسلام (الوصول بالبشرية لمرحلة الرشد والقدرة على التفكير واتخاذ القرار) من خلال جانب آخر في غاية الأهمية وهو الخطوة العملاقة والثورية والتي تعتبر بحق أكبر تطور فكري في تاريخ المجتمع البشري وهي إلغاء الإكليروس، والحث على عدم اتباع البشر واتخاذهم أولياء من دون الله، وهي الخطوة التي لا تجد حتى الآن من يعطيها حقها من التحليل والدلالة. فهو تطور يتفوق بكثير على أفكار بناء المجتمع ابتداء من أفلاطون حتى فلاسفة التنوير في أوروبا مثل ديدرو وكوندورسيه وروسو. وهو ما يعرف في أوروبا بالتطور من المجتمع الأبوي إلى المجتمع الديمقراطي.

ما هي طبقة الإكليروس؟

طبقة الإكليروس هي طبقة الكهنوت الموجودة في ديانات ما قبل الإسلام. والكهنوت يحتكر الدين والتفسير والفكر والعلم والأحكام. وهي طبقة واجبة الطاعة الكاملة، ولا يصح مراجعتها أو مناقشتها. فإذا ولد طفل من ديانات ما قبل الإسلام فلا حق له في الانتماء إلى هذه الديانة إلا بعد أن تسمح له طبقة الاكليروس عن طريق طقس التعميد الذي لا يستطيع أحد غيرها القيام به. فإذا لم يقم الكهنوت بهذا الطقس لا يعتبر هذا الشخص منتميا إلى الديانة، مهما كان إخلاصه وإيمانه بها. وطبقة الكهنوت هي فقط المنوط بها بناء الأماكن الدينية الخاصة بالعبادات، فلا يستطيع أي شخص من هذه الديانات (كل ديانات ما قبل الإسلام) بناء بيت للعبادة، لأنه لا يحق له ذلك، بل هو حق مقصور على الكهنوت (الإكليروس). كما لا يستطيع أفراد هذه الديانات اختيار أحد ليقيم لهم الصلاة لأن الكهنوت يحتكر هذا العمل. والكهنوت هو من يزوج الناس بعضهم ببعض، إذ لا يستطيع الناس الزواج بدون الكهنوت حسب مفاهيم ديانات ما قبل الإسلام، ويصل الأمر إلى حد أن طلب المغفرة من الذنوب لا يتم إلا من خلال الكهنوت مع طقس الاعتراف الذي تقوم به. كما تملك هذه الطبقة حق إصدار التعاليم

والأوامر الواجبة النفاذ وإلا أصبح الشخص المعترض مطرودا من الديانة. وطبقة الكهنوت وحدها تمتلك حق تحديد الخير والشر والتفسير والقيم والمبادئ ولا يجوز معارضتها (كان ذلك جليا في محاكم التفتيش ومحاكمة وتكفير العلماء مثل جاليليو وبرونو وغيرهم وذلك حتى بعد الإسلام بحوالي ٨٠٠ سنة) وهذه الصلاحيات الكهنوتية تسمى بالأسرار السبعة التي تمتلكها هذه الطبقة. لازال الوضع في معظم الأحوال مستمرا حتى الآن في ديانات ما قبل الإسلام وإن دخلت تأثيرات إسلامية في عصر النهضة خففت قليلا من سيطرة هذه الطبقة، كما أثر التطور الفكري والحضاري أيضا على سيطرتها وإن كانت لا تزال تحتفظ بها نظريا على الأقل).

من خلال المنظور الإسلامي فإن وجود هذه الطبقة الواجبة الطاعة حرام دينيا، فقد أزالها الإسلام تماما وأصبح دينا حرام فيه الكهنوت، وأصبح واجبا على كل مسلم أن يرفض إتباع أي شخص، بل تتحول آراء الفقهاء وفتاويهم إلى وجهات نظر يأخذ بها الشخص أو يرفضها. وهو ما يعرف الآن في العصر الحديث (بالقراءة النقدية) وبحرية الرأي، وهو يعد أحد أهم المبادئ الأساسية للمجتمع الحديث، والتي أرساها الإسلام قبل ١٤٣٠ سنة، ولكن المجتمعات الإسلامية تخلت عنها، والأوروبيون استفادوا منها.

عن عدي بن حاتم قال سمعت الرسول يقرأ في سورة براءة ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه « حسنه الالباني. قال حذيفة ابن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسير الآية إن الناس اتبعوهم (الإكليروس أو الكهنوت) فيما حللوا وحرموا.

وربما كان هذا بالتحديد هو الجوهر الحقيقي للدين الإسلامي والمبرر الحقيقي لاعتباره خاتم الأديان، وهو إلغاء التبعية للبشر وحصر التبعية لله، وبذلك انتهت كل سلطة فكرية على العقول.

وحكمة إلغاء الإكليروس وتحرير الناس منه تتجلى في ظواهر أخرى ومنها حث الإسلام للفرد على حرية التفكير وإعمال العقل ونبذ التقليد والنقل والتكرار حتى ولو كان النقل والتقليد من المفتين والأئمة والفقهاء. (حديث وابصة: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ»[١]

(١) رواه الإمام أحمد، وابن رجب.

وحديث آخر (**«البِرُّ ما سَكَنَتْ إليه النفس، واطْمَأَنَّ إليه القَلْب. والإثْمُ: ما لَمْ تَسْكُنْ إلَيْهِ النفس، ولم يَطْمَئِنَّ إليه القلب، وإنْ أفْتَاكَ المُفْتُونَ»**[1]، وكل هذه الأحاديث واضحة تماما في معناها العظيم والمتطور وهو حتمية إعمال العقل في كل الآراء والفتاوى التي يصدرها المفتون) يقول الحديث «المفتون» ولم يقل «مدعو الفتوى» أي أن الرسول كان يعني (الذين يمتلكون القدرة على الفتوى) ففي الإسلام لا يجب أن يحتكر أحد الآراء الدينية -وبالتالي أيضا الآراء غير الدينية- حتى لا تكون هذه دعوة لعدم إعمال العقل وتبعية البشر لبشر، وهي التبعية التي ساوى القرآن بينها وبين الشرك أو عبادة غير الله. وهذه القضية تمثل الآن العماد الفكري والثقافي للمجتمعات الحديثة التي تدعو لتحرير الفكر والرأي والإنسان. ويدهش لها ويقيمها حق قيمتها علماء الاجتماع. فالمجتمعات الأوروبية وبعد تجربة تاريخية مريرة ودموية مع الإكليروس قررت إبعاد الإكليروس عن الحكم، ولكن الإبقاء عليه وطاعته بكامل صلاحياته داخل الكنائس، وهو ما سمي بالعلمانية. أما الإسلام فقد اتخذ خطوته الثورية العملاقة بأن ألغى هذه الطبقة تماما فلم يعد لها وجود لا في الدولة ولا في الدين، فهي خطوة يصعب على الأوروبيين أنفسهم اتخاذها حتى الآن. **أي أن الإسلام أكثر علمانية بكثير من أوروبا نفسها.** ولتوضيح هذه الفكرة أكثر نحلل المجتمع غير الإسلامي إلى فئتين: الأولى وهي الإكليروس وقد أفندنا في شرحه. والفئة الثانية هي الجماعات الأخرى التي تذهب إلى الكنيسة كل أحد أو كل سبت حسب نوع الديانة، وهم من مهندسين وأطباء وفلاحين وعمال وكل فئات المجتمع وتصلي وتتعبد وتطيع الدين، ولكنها لم تدخل سلك الكهنوت، وهذه الفئات تسمى بالعلمانيين. أما الإسلام فقد ألغى فئة الكهنوت وبالتالي **فإن المجتمع الإسلامي بكل بساطة لا يتكون إلا من العلمانيين فقط.** ومن هنا تتضح المأساة الكبرى والخطر الحقيقي أنه في ظل الثقافة الحالية فأنه يتم الالتفاف حول أهم إنجازات الإسلام والعودة إلى أفكار الإتباع والتقليد وتحريم العلمانية وإعادة بناء إكليروس، وكل ما حرمه الإسلام. وهذه الردة سببها الحقيقي هو الخوف من التفكير وانتشار منهج تفكير مبني على النقل والتكرار (الفكر المطلق) على حساب الفكر العقلي (الفكر النسبي).

أصحاب منهج (النقل والتكرار) سوف يجدون في هذه القضية للأسف رعبا وخطرا لابد من مقاومته بشتى الطرق. وسوف يلتفون حول كل هذه الأحاديث لخنقها أو لتغيير محتواها،

---

(١) رواه الإمام أحمد، وابن حبان، ومسلم

رغم أن قضية القضاء على أي سلطة فكرية تمثل بحق الجوهر الحقيقي للإسلام. والعجيب أن هذا المبدأ قوبل من الأئمة المسلمين السابقين (منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة) في الماضي بمنتهى الفهم والترحاب والتقدير. ولهذا جاء عن ابن عباس وعطاء ومجاهد ومالك بن أنس أنهم كانوا يقولون:

(ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ).

وهو تأكيد لنفس المعنى أي ضرورة إعمال العقل في كل ما يقال حتى من الأئمة أنفسهم. وعن المازني:

«اختصرت هذا من علم الشافعي ومن معنى قوله؛ لأقربه على من أراده - مع إعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره - لينظر فيه لدينه ويحتاط لنفسه».

أي أن الشافعي كان ينهي الناس عن تقليده، بل يحثهم أن يفكروا، وهي دعوة صريحة لإعمال العقل. ما أعظمك يا شافعي.

ومن أعظم ما قيل قول الإمام أحمد:

«لا تقلدني ولا تقلد مالكًا ولا الثوري ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا».

وقال أيضا:

«من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال».

هذا يعني أن من يقلده الناس هو شخص قليل الفقه لأنه لو كان واسع الفقه لعلمهم أن يفكروا لا أن يقلدوا. بل وصل الأمر إلى حد أن قال الإمام ابن حزم:

«إن التقليد حرام، ولا يحل لأحد أن يأخذ قول أحد غير رسول الله ﷺ بلا برهان».

نستخلص ببساطة شديدة أن تقليد البشر وإتباعهم حرام. وأن التفكير وإعمال العقل في كل ما يقال فريضة. ولا يجب إتباع غير الرسول في أمور الدين أما في أمور الدنيا فالحرية أوسع بكثير فهي موكلة إلينا تماما أي أن منهج النقل عن الآخرين وتقليدهم ليس من الإسلام في شيء حتى ولو كان الآخرون هم من يطلق عليهم السلف الصالح. إلى هذا الحد وصل الانحراف في الفكر الإسلامي إلى درجة إنشاء مذاهب فكرية تدعو لما يحاربه الإسلام بكل وضوح وهو التقليد والاتباعية، مثل الإخوان المسلمين الذين يعتبرون مكتب الإرشاد سلطة ملزمة واجبة

الطاعة والسلفيين الذين يعتبرون شيوخهم ايضا سلطة واجبة الطاعة. والمحزن أنهم يسيئون فهم آية قرآنية هامة لتكون مبرر لهم في إنحرافهم. وهذه الآية هي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

فهم يفهمون هذه الآية على أنها دعوة لظهور سلطات دينية واجبة الاتباع. وهنا تكمن خطورة عقول الحفظ والتكرار صاحبة الفكر النقلي وميلها إلى تأويلات خاطئة تبرر منهجها الفكري. الآية العظيمة تضع أساسا لبناء الدولة. وأولي الأمر هنا هم موظفي الدولة أصحاب سلطات اتخاذ القرارات كالحكام والوزراء والمحافظين. فإذا أصدر محافظ القاهرة قرارا بتحويل المرور في شارع رمسيس ليكون عكس ما هو عليه الآن، أي من رمسيس للتحرير، فيجب أن يقود كل شخص سيارته حسب القرارا الجديد رغم أن الكثيرين سيكونون ضده وسيهاجمونه في الصحف وربما ينادون بإسقاط المحافظ ولكن تظل حتمية الإنصياع لتنفيذ القرار واجبة. فأولي الأمر هنا هم موظفي الدولة أصحاب سلطة اتخاذ القرارات. ويكون عدم الانصياع لتنفيذ قراراتهم بحجة الاختلاف معهم في الرأي مسألة تهدد بناء الدولة. فيجب تنفيذ القرارات رغم شرعية الاختلاف معها والمطالبة بتغيرها. ومن المؤسف أن هذه الآية العظيمة ومثيلاتها تتخذ ذريعة لإعادة بناء إكليروس داخل الإسلام. (سلطة دينية واجبة الطاعة)

كان هذا الفكر الإسلامي الذي يعارض إتباع الآخرين أسبق من جوته بحوالي ٨٠٠ سنة ووصل العلماء العرب إلى ما وصل إليه الفيلسوف الألماني و إلى ما يعتبره العالم إعجازا فكريا مدهشا للفكر الغربي، إذ قال جوته:

«كن رجلا ولا تتبع خطواتي[1]».

وهو ما أصبح يعبر عنه بلغة العصر بالقراءة النقدية وتكوين وجهات نظر. وهي نفس الدعوة ولكن تأخرت كثيرا. ألا يدعو هذا للحزن أن نترك سبق حرية الفكر للغرب ونحن أصحابها الحقيقيون؟ ولكننا تخلينا عنها بسبب الجهل والتخلف وسيطرة منهج النقل والحفظ والتكرار على المنهج الإسلامي العقلي.

(١) برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ت. محمد فتحي الشنيطيص ١٠٠.

إن إعمال العقل فريضة إسلامية. كان هذا في الزمن العظيم من العقل المتطور وليس في الزمن الحالي زمن عقول الحفظ والنقل والتكرار.

ومن الأقاويل المبهرة المتجاوزة لكل الأزمان والتي تعتمد على احترام نسبية الصح والخطأ قول الإمام الشافعي:

«قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب».

وهي أعظم دعوة فكرية وفلسفية للديمقراطية وتعدد الآراء ونسبية الصح والخطأ وخطورة سيطرة الفكر الواحد، وأن الاختلاف مهم لاستكمال الحقيقة، وأنه لا يوجد شخص يمتلك وحده الصواب. في هذه المقولة يتلخص كل الفكر الاجتماعي الديمقراطي الحديث. بل بداية ما يمكن أن يسمى بعلم الحوار الموضوعي. وهو أن تتحاور مع محاورك بروح أن ما تؤمن به وتقوله مهما كنت واثقا من صحته يجب أن تعرف أنه يحتمل الخطأ. وأن محاورك مهما كان متناقضا مع أفكارك فهو يحتمل الصواب. وهكذا كان الفكر النسبي ونسبية الصح والخطأ من أهم أسس الفكر الإسلامي.

لم ينتهي تطور الفكر الإسلامي عند هذه الحد بل وصل إلى قمة هامة عند أبي حامد الغزالي.

أبو حامد الغزالي ١٠٥٨- ١١١١

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري. وهو فقيه سني شافعي. سمي بحجة الإسلام لبراعته في الرد على الفلاسفة غير المسلمين. تنقل بين طوس ودمشق وبغداد.

تتلمذ على يد العديد من الفلاسفة القدامى أمثال: أحمد الرازكاني وأبو نصر الإسماعيلي وأبو المعالي الجويني والفضل بن محمد. وكان له تلامذة عديدون. وكتب في الفلسفة والعقيدة والتصوف والمنطق حتى وصلت كتبه إلى أكثر من ٥٠ كتابا.

من الإنصاف أن نتعبره وبدون مبالغة المؤسس الحقيقي للمذهب العقلي في تاريخ الفكر البشري.

كان مبدأ أبي حامد الغزالي هو أن يبدأ الإنسان بالشك في كل ما يقال له من معلومات.

وأن الإنسان البصير يجب أن يظل يشك حتى ينتهي الإنسان إلى حقائق أولية لا يمكن الشك فيها. أي لا يصح أن يأخذ الأفكار التي ولد بها الإنسان كمسلمات فكرية لا تقبل الجدل، بل يجب أن يبدأ بالشك، ويعتمد على عقله في اكتشاف الحقائق وليس على ما يقال له، مهما نسب هذا القول إلى عظماء خلق الله. والإنسان الذي لا يشك فيما يساق إليه من معلومات هو إنسان يعيش كالأعمى حسب رؤية وتعبير الإمام الفيلسوف الغزالي. هل يملك فقهاء اليوم وعلماؤه هذه الشجاعة في استعمال العقل؟ هل يستطيعون نصح الناس إلا يصدقوا أن محمدا رسول الله بدون كما يقول الأولون إلا بعد اقتناع وإلا كانوا يعيشون في الضلال حتى لو آمنوا بالله؟

أبو حامد يكون بلا شك قد سبق ديكارت بأكثر من ٥٠٠ عام. بل هو أول الفلاسفة العقليين على الإطلاق. والمدهش أن عبارة ديكارت الشهيرة:

«أنا اشك إذن أنا أفكر. أنا أفكر إذن أنا موجود»[١].

هي ببساطة شديدة مأخوذة من عبارة الغزالي:

«من لم يشك لم ينظر. ومن لم ينظر لم يبصر. ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال».

وكان أبو حامد يؤمن بالعقل إيمانا مطلقا، فقد أعلى العقل على المعجزات، وأعلاه على الأنبياء، وأعلاه على الأديان.

١- العقل فوق المعجزات:

في كتابه (المنقذ من الضلال) يقول أبو حامد: العلم اليقيني هو الذي تنكشف فيه العلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، حتى لو تحداه متحد بمعجزات. فإذا عرفت أن العشرة أكبر من الثلاثة، وقال لي قائل لا بل الثلاثة أكبر، بدليل أني أقلب العصا ثعبانا، وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي بل أتعجب لفعلته، فأما الشك فيما علمته فلا.

٢- العقل فوق الأنبياء:

في نفس كتابه السابق (المنقذ من الضلال) يقول أبو حامد:

«النتائج اليقينية نستدلها من مقدمات يقينية. فإذا قيل لك خلافها حكاية عن أعظم خلق

(١) المصدر السابق.

الله مرتبة وأجلهم في النظر والعقليات درجة، بل لو نقل عن نبي صادق نقيضه، فينبغي أن يقطع بكذب الناقل، أو بتأويل اللفظ المسموع عنه، ولا يخطر ببالك إمكان الصدق، فإن لم يقبل التأويل فشك في نبوة من حكي عنه بخلاف ما عقلته».

٣- العقل فوق الشرع:

في كتابه المعروف (تهافت الفلاسفة) يقول العبقري الفذ أبو حامد:

«الدين لا يحتج به عن العلم. ما يقرره العلم لم يعد يجوز لأحد أن يكذبه بما يزعم وروده في الدين. ومن ظن أن إبطال شيء مما يقوله العلم هو دفاع عن الدين فقد جنى على الدين. فالأمور العلمية تقوم عليها براهين لا يبقى معها ريبة. فمن يطلع عليها و يتحقق أدلتها إذا قيل له إن هذا خلاف الشرع لم يسترب فيه و إنما يسترب في الشرع».

٤- العقل والأديان:

في كتابه (ميزان العمل) يقول العلامة حجة الإسلام الفذ أبو حامد:

«لو ذكر ذاكر مذهبه فما منفعتك فيه ومذهب غيره يخالفه، وليس مع الواحد منهم معجزة ترجح كفته. فجانب الالتفات إلى المذاهب واطلب الحق بطريق النظر (إعمال العقل) تكون صاحب مذهب، ولا تكن في صورة أعمى، تقلد قائدا يرشدك إلى طريق، وحولك ألف مثل قائدك ينادون عليك، فلا خلاص إلا في الاستقلال (تكوين وجهة نظر)».

٥- العقل والإسناد إلى البشر:

في كتابه (المنقذ من الضلال) يقول العلامة حجة الإسلام أبو حامد الغزالي:

«مهما نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم، قبلوه و إن كان باطلا. و إن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم، ردوه و إن كان حقا. فأبدا يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق، وهو في غاية الضلال».

وهذه العبارة تعني أننا يجب أن نصل إلى معرفة الحق أولا، ومن خلال معرفتنا بالحق نستطيع أن نقيم الناس. أما من لا يهتم بمعرفة الحق أولا، و يعتبر أن ما يقوله الأشخاص الذي يثق فيهم هو الحق فهذا هو الضلال.

في نهاية كتابه (ميزان العمل) يقول أبو حامد عبارته الشهيرة التي عبرت أيما تعبير عن المذهب العقلي في الفكر، والتي نقلها عنه ديكارت بعد أكثر من ٥٠٠ سنة في أوروبا وكانت بداية العصر التنوير.

«من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى. نعوذ بالله ذلك».

هكذا أرسى الإسلام عن طريق أبي حامد الفكر العقلي بكل أركانه، والذي استفادت منه المجتمعات الأوروبية، أما نحن فقد تركناه تماما، بل لا أبالغ عندما أقول أننا أصبحنا نكفره، ونستعيد عنه بما حذرنا منه الإسلام وهو الفكر النقلي التبعي، فوقعنا في حيص بيص. **وأصبحنا نؤمن بديانة تنتمي إلى الإسلام بالاسم والشكل، وتتناقض معه في الجوهر والأساس.**

التطور في الفكر الإسلامي العقلي تطرق إلى قضايا ذات طبيعة اجتماعية، فما كان عمر يتجاوب معه (الظروف الاجتماعية المتغيرة) حتى على غير ما جاءت به النصوص القرآنية قطعية الدلالة تحول إلى نظرية ذات أسس وبراهين.

نجم الدين الطوفي

ولد في القرن الرابع عشر الميلادي. وهو فقيه حنبلي. تعلم في دمشق وبغداد. ثم ارتحل إلى القاهرة. وكل إليه تجديد المدرستين الناصرية التي بناها الظاهر بيبرس وجددها الناصر بن قلاوون وسميت باسمه والمنصورية التي بناها السلطان منصور بن قلاوون الألفي بالقاهرة.

بعد دراسته على يد العديد من الفقهاء والفلاسفة العرب انتهى إلى نظرية فقهية تعتبر استكمالا واضح الملامح للفكر العقلي الإسلامي أو المذهب العقلي الإنساني عامة.

فيقول في كتابه التعيين في شرح الأربعين:

«ولا يقال إن الشرع أعلم بمصالحهم فيؤخذ من أدلته، لأنّا نقول: قد قدرنا أن رعاية المصلحة هي مقاصد الشرع، وهي أقواها وأخصها فلنقدمها في تحصيل المصالح»[1].

(١) نجم الدين الطوفي، التعيين في شرح الأربعين.

وهذا يعني ببساطة بلغة العصر (أن البعض يقول إن الشرع أعلم بمصلحة الناس فنأخذ من الشرع. أما نحن فنقول أن المصلحة هي هدف الشرع، فلنقدمها عليه كمرجعية).

وقد دلل على ذلك بأسانيد عقلية بالدرجة الأولى، فذكر أن بعض الفقهاء ينكرون حجية الإجماع ولكنهم لم يستطيعوا إنكار حجية المصلحة. وأن كون المصلحة هدف الشرع باتفاق الجميع هو أدعى لتقديمها. كما أن بعض النصوص تختلف في دلالاتها مما يدعونا للأخذ بالمصلحة التي تعتبر هدفها[١].

وعندما عارضه البعض بحجة أن المصلحة متضمنة في القرآن، نفى ذلك على أساس أن المصلحة ليست كيان محدد. وكان يعني أن المصلحة نسبية ومتغيرة، والمصلحة اليوم تكون غيرها غدا. وكانت نظريته (المصلحة تقدم على النص) والتي هي أهم نظرية لتقديم العقل على كل شيء حتى على النص الديني هي امتداد للفكر الإسلامي الديناميكي الصحيح الذي رأيناه من الرسول فعمر ثم الأئمة الأوائل فالمعتزلة وأبي حامد الغزالي. كالعادة استفاد الغرب تماما من نظرية نجم الدين الطوفي. وأصبحت هذه النظر. تمثل الثورة الكبرى في التشريع الأوروبي، وكانت إحدى دعامات المجتمع الديمقراطي الحديث. فقد نقلها الفيلسوف الإنجليزي جيريمي بنثام (Jeremy Bentham) ١٧٤٨-١٨٣٢ تحت نفس التسمية (Utility) على أساس أن المصلحة هي أساس التشريع وليست الكنيسة ومرجعيتها الدينية[٢]. وكان هذا بعد الطوفي أيضا بأكثر من ٤٠٠ سنة. وكان بنثان واحد من أهم فلاسفة عصر التنوير في أوروبا الذي أسسوا للمجتمع الحديث.

كان الإسلام منذ البداية يؤمن بالتطور. وتطوير الأحكام مع تغيرات العصر، تحرير عقل الفرد من أي سلطة بشرية عليه واعتبار أن العقل هو أساس كل الأحكام، وحتم ضرورة استعماله حتى في النصوص. فالرسول ﷺ هو أول وأكبر علماني في التاريخ.

ولكن في ظل الخوف من التفكير وبالتالي غياب الفهم الحقيقي لجوهر الإسلام يحدث تراجع في قيم الإسلام العظيمة، فقد بدأت فكرة الإكليروس (أهل الحل والعقد في الأمور وواجبي الطاعة) تتسلل خلسة داخل المجتمعات الإسلامية من خلال نشر أفكار مثل عدم

---

(١) المرجع السابق

(2) Holger Koelnerk Benethan These, Utility, part 1, s. 18-167.

صلاحية الإنسان العادي في التفكير الديني وترك هذه الأمور للفقهاء، وهذا بالضرورة يعني إيقاف التفكير واعتبار الفقهاء واجبي الطاعة وهو نوع من التقديس إن لم يكن تأليه (إعادة بناء إكليروس)، وهو أهم ما كان يحذر منه الإسلام. تصور أن تعدد الفتاوي واختلافاتها فوضى يجب أن تقاوم وليس رحمة بالعباد وسعة للآراء كما كان ينظر له في السابق وقد أصبح يعرف الآن بلغة العصر بالتعددية.

عندما صنف إسحاق الأنباري المتوفى سنة ٢٥٢هـ (كتاب الاختلاف) قال له الإمام أحمد ابن حنبل ـ رحمه الله ـ سمه (كتاب السعة). وقال مالك: «يا أمير المؤمنين إن اختلاف العلماء رحمة من الله تعالى على الأمة». وفي حلية الأولياء (١٩/٥) قال: كان طلحة بن مصرف إذا ذكر عنده الاختلاف قال: لا تقولوا الاختلاف ولكن قولوا السعة (أي التعددية بلغة العصر). والآن توضع شروط تحدد من يصرح له بالفتوى ومنع غيره من إبداء رأيه. وهناك محاولات مستمرة للالتفاف حول الأحاديث التي تنص على أهمية إعمال العقل ومحاولة إضعافها أو وضع شروط إضافية مفتعلة تفرغ الأحاديث من محتواها الحقيقي. وتم تبشيع لفظ العلمانية (دولة إلغاء الإكليروس) وربطه بالكفر لتكريه الناس فيه تمهيدا لقبول الإكليروس الجديد. والمحزن أن هذا هو ما يطلق عليه اسم الصحوة الدينية، والتي تتجلى أكثر ما تتجلى في الزي والتعصب وإلغاء استعمال العقل. ربما كان هذا التوجه حسن النية ونابعا من التمسك بالدين والخوف عليه، ولكن بدون حرية الفكر وبدون الفهم الصحيح يؤدي إلى إضعاف الإسلام والوقوع في الفخ التاريخي الذي كان الإسلام حريصا على أن يجنبنا إياه. فقد أصبحت فلسفة النقل والحفظ والتكرار هي الرد الوحيد لكافة المشكلات. فإذا أثار الفرد مشكلة مثل قضية تربية الطفل وجد الحوار ليس بحثا في سيكولوجية الطفل أو عوامل البيئة المؤثرة، أو أساليب التربية الحديثة أو... أو... بل يجد الحوار محصورا في أن الوالدين إذا تمسكا بالقرآن والسنة فإن كل شيء سيكون على ما يرام!! وهذا طبعا نتاج طبيعي للعقلية السابقة، وإذا ناقشت قضية عمل المرأة، أو قضية إسرائيل... التطبيع... التنمية... تغيير الدستور... فلن تجد إلا ردودا لا تعتمد على علم الاجتماع أو التاريخ أو الاقتصاد أو دراسة الأوضاع العالمية أو... أو... بل ستواجه بثقافة الخوف من التفكير والاعتماد على الحفظ والنقل والتكرار وهي البحث في النصوص الدينية، وأقوال السلف الصالح على أساس أن القرآن والسنة والسلف الصالح حسموا كل الأمور منذ ١٤٠٠ سنة (الإسلام هو الحل) وما علينا إلا التنفيذ. فيتحول الإسلام من دين يدعو للفكر

وتحرير العقل إلى دين يسد الطريق على أي فكر وطاردا لكل العلوم الأخرى. ويؤدي هذا إلى إلغاء تام للواقع والتفاعل معه. ويعيش المجتمع ككل في عالم افتراضي منعزلا عن الأحداث الحقيقية. فتكون الانتخابات في نظرهم (غزوة الصناديق)، والإعلام (سحرة فرعون) وكرة القدم حرام شرعا. والرئيس خليفة ابدي وهكذا يتم الخروج التدريجي من الواقع ومن التطور التاريخي، ويصاب الناس بعدم الفهم والعجز عن المواجهة والغياب التام، فلا يظل موجودا في مجال الحوار غير قضايا سطحية ساذجة غرائزية بالدرجة الأولى ذات صفة تكرارية ولا تنتمي للواقع لا بأهميتها ولا بدورها، ويصبح ما يهم الناس هو زى المرأة، شعر المرأة، صوت المرأة، الخلوة ... وطبيعي أيضا أن ينتشر التصور الساذج أن تحرير فلسطين والانتصار على التحديات التي يفرضها علينا الغرب وبناء دولة متطورة لا يتم إلا عن طريق الحجاب والنقاب وكبح المرأة وخنقها، لأنه لا يتبقى بعد إلغاء العقل والانعزال عن الواقع سوى صوت الغريزة عاليا، وتدفع المرأة الثمن كاملا إما عن طريق القمع الاجتماعي والاستئساد عليها من ناحية والتحرش المستمر بها من ناحية أخرى. وكلاهما وجهان لعملة واحدة.

إن الأب الواعي هو الذي يعي أن دوره في تربية ابنه هو تعويده على الحرية: حرية التفكير وتكوين أرائه الخاصة واتخاذ مواقفه وقراراته من شتى القضايا. والأب الواعي يعي أيضا أن سلطته على ابنه تنتهي تماما في مرحلة سنيه معينة، ولا ينقص هذا من شأن الأب بل يعليه لأنه يعرف كيف ينشأ ابنا قويا قادرا على المواجهة والتحدي. أما الأب السلطوي القاسي الذي يتدخل في كل تفاصيل حياة ابنه بحجة الحرص عليه، ولا يتيح له الفرصة لتكوين آراء مختلفة خاصة به، بل أن يلقنه كل شيء بحجة تعليمه، وأن سلطته الشاملة على ابنه تستمر طول العمر، فهو أب يضعف كيان ابنه تماما ويجعل منه طفلا عاجزا طول الوقت. هذا للأسف هو النموذج المتبع في المجتمع، فهذا ليس فقط نموذج تربية الأبناء بل هو منهج شامل يمثل حتى فهم الدين بنفس المنطق.

وهذه هي المحصلة النهائية لمجتمع الخوف من التفكير الذي ينزلق تدريجيا وطواعية إلى دولة كهنوتية سلطوية من نوع جديد.

ولكن يتبقى سؤال ملح.

لماذا توقف البحث والتطور الفكري العقلي في الإسلام؟ ولماذا توارى مفهوم الدين الحقيقي

المبني على الاعتراف بالعقل والتطور؟ واحتكر الفكر النقلي الذي يمثله الإخوان المسلمون والسلفيون والجهاديون وغيرهم التعبير عن الإسلام؟

وكيف أصبح الإسلام كفكر نموذجا للتبعية الفكرية لأشخاص حاليين أو سلفيين بعد أن كان رائدا في الثقافة الإنسانية للتحرر من السيطرة على العقول والاستجابة لمتطلبات كل عصر؟

الإجابة الوحيدة الممكنة هو أن التاريخ يظهر لنا أن الفترة العثمانية شهدت غيابا حقيقيا لكل أنواع الفكر الحر. وغرقت المجتمعات العربية في فترة بيات شتوي فكري استمرت قرونا أربعة. وجاءت الحملة الفرنسية لتنهي هذه الفترة وتفتح النافذة الوحيدة للفكر الحر والذي للأسف الشديد أتي من أوروبا. ثم تبع ذلك محمد على الذي اهتم بإرسال بعثات إلى فرنسا لاستجلاب مظاهر حضارية حديثة من هناك. وبالتالي مثلت أوروبا قبلة التطور والمنقذ الوحيد من التخلف في مصر والشرق. وانقطع خط التطور الطبيعي بين الماضي المتطور والذي يحمل إمكانيات تطوير الحاضر الغارق في التخلف. وتم بناء طريق جديد -ولكنه مفتعل- بين طالبي التحرر الفكري من ناحية وبين أوروبا من الناحية الأخرى، مع ارتفاع جدران الشك والريبة في الشخصية العربية وفي الماضي وإمكانياته على إيجاد الإجابات الفكرية المطلوبة. ربما يتشدق بعض المفكرين بشكل سطحي بالماضي العربي العريق ولكن يظل هذا على سبيل الفخر الأجوف وبدون إيمان حقيقي به، ولا يتصورون إمكانية البدء منه (نستثني منهم قلة مثل د. حسن حنفي والمرحوم د. ذكي نجيب محمود). بل يتبارون في الانتماءات الغربية والانخراط في أشكالها الثقافية والفكرية، والتسابق على التلمذة للمفكرين الغربيين وحفظ مقولاتهم والتشدق بها، فانتشرت ظاهرة المركزية الأوروبية واستفحلت بشكل مخيف في المنطقة العربية أكثر من أوروبا نفسها. وهذه الحالة خلقت ظاهرة مرضية. مفكرون حداثيون يسمون أنفسهم بالليبراليين وهم ربما حسني النية ولكن ذوي منطلقات فكرية إغترابية وبالتالي معزولون اجتماعيا، ومتهمون من قبل العامة بشتى الاتهامات. فالثقافة الأوروبية الليبرالية تظل في العقلية العربية التي صنعها التاريخ هي ثقافة الاستعمار. وهي ثقافة الذين يدافعون عن إسرائيل. وهي أيضا في نظر معظم الناس ثقافة الإباحية الجنسية وزواج الشواذ. وهذا الاتهام يراه العامة في كل أصحاب التوجهات الغربية الفكرية الليبرالية. واليسار المصري يعاني من نفس الأزمة. فهو نبت من بذور إغترابية، ومهما حاول من نشر ثقافة عالمية أممية تعطي شرعية لخروجه من بذور أجنبية ولكنه يظل طول الوقت معزولا شعبيا. وبالتالي

تركت الساحة الفكرية الأصيلة التي تنطلق من الواقع والتراث العربي فقط لأصحاب الفكر الأصولي الجامد فكر النقل والتكرار. ولم يعد هناك أي فكر إسلامي مختلف. فأصبحوا شهود الإسلام ومحتكريه، فسيطروا على الشارع وأصبح ينظر إليهم على أنهم ممثلوا الدين والهوية والأصالة. ولم تظهر حتى الآن أي محاولة إسلامية لإحياء قيمة العقل والتطور كما ينص عليه الإسلام الحقيقي. بل وصل الأمر أن أية محاولة في هذا الاتجاه أصبح ينظر إليها من أصحاب الفكر الاغترابي (الليبراليين واليساريين) بكل ريبة على أساس أنها لا يمكن أن تؤدي إلا إلى أيديولوجية جامدة مطلقة تعود بنا إلى تعطيل العقل والتطور (وذلك هو النتيجة الطبيعية لانعدام الثقة في الذات وفي الثقافة والتراث العربي وتفحل مرض المركزية الأوروبية). نحن بحاجة إلى تيار حقيقي لإحياء الفكر العربي الأصيل الذي كان بداية لتحرير العقل في العالم كله وكان الرائد وصاحب السبق في هذا المجال. لكي يمتلك المصداقية الشعبية، ولكي يكون قادرا على التصدي لموجة الفكر المطلق الجامد، ولأنه يمتلك حلولا و إجابات أكثر فهما وأعمق تحليلا من الفكر الغربي. عموما.

قضية حساسة وخطيرة مثل قضية التنوير لن تحل إلا من خلال فكر أصيل يمتلك مصداقية تاريخية، أما الأفكار المستوردة فستظل عقيمة حتى و إن صحت.